فن الحدائق

ونصوص في التراث العربي

يا نسيماً هب مسكاً عبقاً هذه أنفاس ريّا جلقا

« أبو فراس السلمي »

د. عبد الكريم اليافي

الحديقة جزء من الطبيعة هيأه الانسان لمباهجه وأعد فيه خلاصة ما وجده فيها من نبات جميل اختاره ومياه عذبة أجراها وطير جمعه وحيوان حشره أو دجّنه، مع طرق أحسن رصفها ومقاصير أجاد بناءها ودكّات رتبها للتأمل ومجالس نظّمها للتملي • هذا الى اتساع رقعة الجو ومعابثة الأشعة والظلال ومغاداة النسيم ومراوحته ومفاتن الفصول الأربعة ونصوع آناء النهار كل وقت له جماله وطلاوته كالشروق والبكور والغدوة والضحى والظهيرة والعصر والأصيل والغروب ، وسحر آناء الليل وغموضها كاختلاط النور والظلام والشفق والغسق والعتمة والسدفة والموهن والسحر والفجر والصبح ثم مع ذلك مرافق مساعدة ومنافع مسعدة ، فالحديقة بهذا الشكل وعلى هذا الطراز مختصر الطبيعة المختار بل هي تنظيم لبعض أجزاء الطبيعة كما ترغب الارادة الانسانية المتحلية بالحس الفني والمتجلية بالرهافة الجمالية • فهي تعمد الى تشكيل أجزاء الطبيعة الحية التي هي رهن التكامل والنمو والتفتح والربو والازدهار والازدهاء ولكنها أيضاً رهن العسو والذبول والجفاء والفناء •

هذا التناقض في الصفات والخصائص يبرز الفرق بين فن الحدائق وبقية الفنون المتعارفة • ذلك أن طائفة من هذه الفنون الجميلة تعالج مواد هامدة وتؤلف بينها لتهب لها وجوداً فنياً ممتعاً من نوع روحي خاص كما يفعل التصوير بالألوان والخطوط والأشكال وكما يصنع النحت بالمرمر والصفر والخشب وأمثالها فهي تفرض على هذه المواد أشكالا ونسباً ثابتة ونهائية • ولكن فن الحدائق يعالج مادة حية لها قوانينها ونظامها في النمو والتكامل أو النكوص والتراجع • فهي

ان استجابت لرغبات الانسان وما يريده من تشكيل وتأليف فلا بد من أن تخرج عن ارادته ورغباته بالعفوية التي تملكها والخصائص التي تتميز بها • هذا نوع من التناقض والانسجام في وقت واحد بين المادة الحية والأشكال التنظيمية المفروضة • وليس فن الحدائق الا تعهد ذلك الانسجام والتناقض والاختلاف والائتلاف والنجاح في الملاءمة بين هذه الأضداد • قد تطغى المادة الطبيعية الحية في الأسلوب فيقترب فن الحدائق من عفوية المناظر الطبيعية أو يوحي بها دون أن يلتزم بها تماماً • وقد يغلب التنظيم في الحديقة فيحد القوى الطبيعية ويضيّق عليها ويجعلها قريبة من موادفن العمارة وذلك بتقليم الورود والأشجار وترتيب المروج والأزهار وتنسيق الفسقيات والجداول واعطاء الجميع أشكالا هندسية ونِسباً متسقة متصلة ومنفصلة •

هذان الحدان المتقابلان الطبيعي والهندسي يترجح بينهما تاريخ فن الحدائق كله منذ القديم الى العصر الحاضر • فن الحدائق الصيني والياباني ثم الانكليزي مثال على النوع الأول ، وفن الحدائق البابلي ثم الفرنسي مثال على النوع الثاني. والجامع للنوعين هو الفن العربي الاسلامي •

ان موضوع الحدائق مادة الحياة ومافيها من عناصر • ولما كان الكائن الحي رهن التبدل والتغير احتاج هذا الموضوع الى التعهد الدائم والصيانة الدائبة ، والا سرعان ما ينتهي الى التصوّح والاضمحلال ويفضي الى الذُوِيّ واليبس والانقراض •

يُلحق الفيلسوف الألماني « كانت » فن الحدائق بفن الرسم والتصوير • ويضع مواطنه وتلميذه « شوبنهور » فن الحدائق وتصوير المناظر ورسم الطبيعة الميتة في مرتبة واحدة من تصنيفه للفنون، اذ تشف جميعها عن تصورات الطبيعة النباتية من نموّ وتشكل الى جانب سيولة الماء الجاري والظل والنور والحرور وهي كلها نغمات الطبيعة الصم العميقة كالجاذبية والثقل والمقاومة وغيرها مما يؤلف تصورات فن العمارة وينم عن درجة من درجات تحقق الارادة التي هي عند فيلسوفنا المتشائم جوهر الرغبة في الاستمرار والبقاء •

ولقد كان الفلاسفة الحديثون الذين عالجوا الفنون متفاوتين في النظر الى قيم الجمال في الطبيعة والى تقدير يد الانسان الصنّاع في تنسيقها • ولا شك

أن الأدباء والفلاسفة الرومنسيين أعلوا شأن حب الطبيعة وعكفوا على التعاطف معها حتى ان المشاعر العميقة تلقاءها تؤلف عنصراً مهماً من عناصر الأدب الرومنسي الأوربي في القرن التاسع عشر ·

ولكن لا بد من التنويه بالفيلسوف الانكليزي « جون رسكين » الذي أعلى شأن الطبيعة وجعل كل مجلى من مجاليها جميلا وزعم مناظرها كلما خلصت من أثر الانسان كان جمالها أوفر · ألا ترى الى السحاب حين تنظر اليه في السماء تجتذبك أشكاله المتغيرة المتبدلة وكل هذه الأشكال تتفق مع قوانين الجمال · ويرى رسكين أن الطبيعة هي معلمة الفن الأولى والوحيدة وأنها الرمز الذي يشير الى بارئها جلّ وعلا ، كما يرى أن الفن غذاؤه حبّ الطبيعة وتأملها ، وقوته في تواضع الفنان واقتدائه بها ·

وينطوي التراث الحضاري العربي على صور فكرية وفنية وأدبية بديعة في حب الطبيعة وتصوير مفاتنها · وقد عقدنا في كتابنا « دراسات فنية في الأدب العربي » فصلا عرضنا فيه صوراً بليغة في هذا الشأن · فلا حاجة للافاضة هنا فيه ·

على أن الحديقة باختصارها للطبيعة واعتبارها معرضاً لبعض مجاليها وصورها تضم ما في الطبيعة من قيم جمالية · فلا شك أن الورد والنرجس والبنفسج والريحان والأقاحي ينظر اليها الفن بمنظاره ويصنف قيمتها الجمالية في مرتبة الرقة واللطف والحلاوة والرهافة ، كما ينظر الى الدوحة الباسقة والأرزة الشامخة الباذخة فيشعر تجاهها بعاطفة السمو والروعة ، وينظر الى البركة المتسعة التي يسبح في سطحها البط فيشعر بالحسن والرشاقة والانسياب والسهولة ، وكلما أنعم المرء النظر في الطبيعة وتأمل محاسنها في مختلف الآناء والفصول استخفته مجاليها الممتعة وأنس بعناصرها البديعة وأخلد الى ما فيها من الائتلاف والاختلاف وتعدد الألوان والأصباغ والى قوة الحياة المنبثة في غضارة نباتها والى ما ينبعث في مجاليها من رأم وحنان · وقد يتمثل بقول الشاعر أبي نصر المنازي أو الشاعرة حمدة بنت زياد :

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ ... سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحة فحنا علينا ... حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالاً ... ألذ من المدامة للنديم

تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم
يصد الشمس أنّى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم

ثم ان انشاء الحدائق وتعهدها يقتضيان تقدم الفلاحة ووجود زرّاع وأكّارين يستصلحون الأرض ويجعلونها مخصاباً ان لم يكن الخصب من صفاتها ويعرفون أنواع النبات وخصائصه وحاجاته وما يزكو ويربو به من تراب وسماد وسقاية ويدركون أشكال نموه وتفرعاته وأغراسه ومزاياه ·

وأقدم ما يعرفه المؤرخون عن تقدم الفلاحة يرجع الى عهود ما بين النهرين أحد مهود الحضارة الانسانية · يقول المؤرخ المسعودي في كتابه «مروج الذهب» عند بحث ملوك بابل : « فهؤلاء الذين أتينا على أسمائهم وذكرنا مدة ملكهم هم الذين شيّدوا البنيان ومدنوا المدن وكوّروا الكُور وحفروا الأنهار وغرسوا الأشجار واستنبطوا المياه وأثاروا الأرض واستخرجوا المعادن من الحديد والنحاس والرصاص وغير ذلك · »

وأكثر ما اعتمد البابليون والآشوريون في الفلاحة أشجار النخيل الباسقة · وكانت تؤلف غالبية الأشجار والدوح في البساتين · ويصعب معرفة المكان الأصلي الذي دخلت منه النخلة الأولى الى العراق · ويظن أنه شبه جزيرة العرب · وكثرت زراعتها في الجنوب · وقد عرفوا فوائد هذه الشجرة فأكلوا ثمرها واستخرجوا منه أصنافاً من الأشربة والخمور ثم صنعوا منه الدبس ثم الخل ، واستعملوا النوى وقوداً أو سحقوا النوى وقدموها علفاً للحيوان كما استعملوا السعف والجريد في صنع البيوت ، واصطنعوا الألياف في عمل الحبال · ثم انهم عمدوا الى تكثير النخيل بالفسيل وباستنبات النوى وان كان الاستنبات بالنوى أبطأ جداً منه بالفسيل · وكانوا يتركون مسافات كافية بين النخلة والنخلة · ويستفيدون من هذه المسافات حيث يضؤل البخر في زراعة النباتات الظلّية اذ كانت تتيح تلك الفُرَج رطوبة تكاد تكون دائمة فيساعد ذلك على انبات ما هو غض لطيف لا يحتمل لفح القيظ الشديد ولا نفح البرد القارس · ومن غرائب مساعي الانسان أن البساتين والحدائق لم تنشأ أول ما أنشئت لزيادة المحصول الغذائي بل للمتاع والبهجة ولزراعة الأزهار والزينة · كانت تتجلى فيها شدة الخصب وتتبدى قوة الحياة وتباركها الآلهة التي تشرف على الحياة

وعلى الاخصاب • ولا غـرو أن تكـون عشتار هنالك عندهم وفي أوهامهم راضية عن اقامة تلك الحدائق والبساتين •

أقام الملك الآشوري سرغون (الذي حكم بين ٧٢٢ ـ ٧٠٥ ق•م) في عاصمته دور شروكين على مقربة من نينوى حديقة واسعة جلب اليها من جبال الأمانوس في جنوبي الأناضول أنواعاً من الأشـجار كالصنوبر والسرو كمـا جلب من شمالي سـورية التين والعنب والغـار والآس وأصناف الورود • وكأن حديقته تلك كانت تختصر نبات البلاد التي دوّخها • وربما كان قد جلب اليهـا أيضاً بعض أنـواع الطيور والطرائد والسباع • وأربى خلفه سـنحاريب عليـه اهتمامـاً بالزراعـة وتعهـداً لهـا •

وبعد أكثر من قرن جاء ملك بابـل بختنصر(*) (حكم بين ٦٠٥ـ٥٢٦) فأنشأ الحدائق المعلقة الذائعة الصيت في قاعدة ملكه بجانب قصره الفسيح • كانت هذه الحدائق سـطوحاً ومستويات مستطيلـة مُهِّد بعضها فـوق بعض ، تتألف مـن تراب خصيب هو طمي الفرات • وكـل سطح يتجاوز ما هو أعلى منه • ويزرع على جوانب السطوح وممراتها النخيـل وبينه النباتات الظلّية البديعة العطرة • وقد جُرَّ الماء من الفرات بأقنية وبآلات مائية يتناوب في ادارتها طوائف من الرقيق حتـى يصـل الى أعلى طبقـة من تلـك السطوح ثم يتسبسب الماء من سطح الى آخر دونـه • وتقـوم في الساحة العليـا مقاصير لسكنى الملك وأسرته • ومن تلك المقاصير تلوح الأشجار والأزهار نزهـةً للأبصار كما تهب النسمات تحمل الشذا المعطار • وانما ابتنى الملك تلك الحدائق كُرْمى لزوجته الأميرة الميدية ورفقاً بها من قيظ العراق • وقد نسبت تلك الحدائق خطأً الى الملكة سمير اميس • وكانت الحدائق احدى عجائب الدنيا لهج بجمالها وعظمة بنائها وطاقة تكوينهـا السياح اذ ذاك من كل صوب •

الى الجنوب والغرب من بلاد ما بين النهرين اتسق فن الحدائق قديماً في مصر. ولما كانت مصر « هبة النيل » كانت الحدائق والبساتين فيها قائمة على وجه الأرض وقريبة من هذا النهر العظيم أو من أحد فروعه لتمتاح منه ما تحتاجـه من ميـاه

★ يقال له أيضا نبوخذ نصر ، ونبوكد نصر •

للسقايـة والري • وكانت مزروعاتهـا الأشجار المثمرة من نخيل وجمّيز (تين فرعـون) وغيرهمـا • وكـان الزرّاع يشقون من النهر اليها جداول تلتقي في وسط البستان لتؤلف حوضاً واسعاً ينموفيه النيلوفر الأبيض المصري (اللوتس) والنيلوفر البنفسجي وجنبـات البـردي كما تلعب في مياهـه الأسـماك وتتعايش معها الطيور المائية • وكل بستان مسوّر يضـم في داخل أسـواره أطـايب العيش ونِعم السعادة ومفاتن الحياة •

ذانكم أسلوبان من فن الحدائق • أما الأول فمعلق قائم على طبقات بعضها فوق بعض ، يدل على براعة وقـوة فائقتين في التنظيم وجر المياه • وأما الآخر فمستلق في السهل يفيد من انبساط الأرض ومن خصبهـا واتساعهـا ومن تدفـق النيـل وفروعـه •

ولكن تاريخ هذا الفن يبرز أسلوباً ثالثاً وهو فارسي يختلف عن الأسلوبـين السالفين • انه يعتمـد على سعة الأرض وتضاريسها معاً • فهو حديقـة لنباتات الزينة وهو بستان تنصب فيه الأشـجار والدوح في صفوف من كل نوع ، ووراءها أجمـات وغياض أشبه ما تكون بالغابـة يعيش فيها طـرائد للصيـد وحيوانـات مختلفة • وربما أخذ الفرس عن البابليين ادخال الطيور والحيوان الى تلك الحدائق. وفي الموضع تلو الموضع من أرجائها سرادق أو صيوان أو جناح للاستجمام والشراب • بل توجد في بعض الأشجار الضخمة قُتَر "أو نواميس أقيم كل منها لتربص الصائد فريسته • وفي التـراث العربي أوصـاف لبعض تلك الحدائق الغناء الفيـح التي يسمونها الفراديس وهـذا لفظ فارسي دخل العربية كما دخل اللغات الأجنبية • ونحب أن نكون أوفياء لعنوان هذا البحث فنتـوارى في الحـين بعـد الحـين وراء النصوص نُطْرِف بها القارىء الكريم بأقلام مؤلفيها ونكفيه مؤونة التنقيب عنها ونيسّر له لقاءهـا • نتـرك الحـديث لياقوت الحموي يتكلم على « قصر شيرين » في معجمـه :

« **قصر شيرين** : بكسر الشين المعجمة ، والياء المثناه من تحت الساكنة ، وراء مهملة، وياء أخرى ، ونون ، وشيرين بالفارسية الحلو، وهو اسم حظية كسرى أبرويز وكانت مـن أجمل خلق الله ، والفرس يقولون : كان لكسرى أبرويز ثلاثة أشياء لم يكن لملك قبلـه ولا بعده مثلها : فرسـه شبديز وجاريته شيرين ومغنيه وعوّاده بلهبذ • وقصر شيرين موضع قريب من قرميسين بـين همذان وحلوان في طريق بغداد الى همذان وفيه أبنية عظيمـة

شاهقة يكل الطرف عن تحديدها ويضيق الفكر عن الاحاطة بها ، وهي ايوانات كثيرة متصلة وخلوات وخزائن وقصور وعقود ومتنزهات ومستشرفات وأروقة وميادين ومصايد وحجرات تدل على طَوْل وقوة. قال محمد بن أحمد الهمذاني : كان السبب في بناء قصر شيرين، وهو احدى عجائب الدنيا ، أن أبرويز الملك وكان مقامه بقرميسين أمر أن يبنى له باغ يكون فرسخين في فرسخين وأن يحصّل فيه من كل صيد حتى يتناسل جميعه ووكل بذلك ألف رجل وأجرى على كل رجل في كل يوم خمسة أرغفة من الخبز ورطلين لحماً ودورق خمر ، فأقاموا في عمله وتحصيل صيوده سبع سنين حتى فرغوا من جميع ذلك، فلما تم واستحكم صاروا الى البلهبذ المغني وسألوه أن يخبر الملك بفراغهم مما أمروا به، فقال : أفعل ، فعمل صوتاً وغناه به وسماه باغ نخجيران أي بستان الصيد ، فطرب الملك عليه وأمر للصناع بمال ، فلما سكر قال لشيرين : سليني حاجة ، فقالت : حاجتي أن تصيّر في هذا البستان نهرين من حجارة تجري فيهما الخمور وتبني لي بينهما قصراً لم يُبن في مملكتك مثله ، فأجابها الى ذلك وكان السكر قد غلب عليه فأنسي ما سألته ولم تجسر أن تذكره به فقالت لبلهبذ :ذكّره حاجتي ولك علي أن أهب لك ضيعتي بأصبهان، فأجابها الى ذلك وعمل صوتاً ذكّره فيه ما وعد به شيرين وغنّاه اياه ، فقال : أذكرتني ما كنت قد أنسيته ، وأمر بعمل النهرين وبناء القصر بينهما فبني على أحسن ما يكون وأحكمه ، ووفت لبلهبذ بضمانها فنقل عياله الى هناك ، فلذلك صار من ينتمي اليه باصبهان ، وقال بعض شعراء العجم يذكر ذلك :

يا طالبي غُرر الأماكن حيّوا الديار ببرزماهن
وسلوا السحاب تجودها وتسحّ في تلك الأماكن
وتزورُ شبديز الملوك وتنثني نحو المساكن
واها لشيرين التي قرعت فؤادك بالمحاسن
تمضي على غلوائها لا تستكين ولا تُداهن
واها لمعصمها المليح وللسوالف والمغابن
في كفها الورق الممسّـ ـكُ والمطيب والمَداهن
وزجاجة تدعُ الحكيـ م ، اذا انتشى ، في زي ماجن
أنعظتُ حين رأيتها واهتاج مني كلّ ساكن
فسقى رباع الكسرويـ ـة بالجبال وبالمدائن
دانٍ يسفُّ ربابه وتناله أيدي الحواصن

وانما قاله لأن صورتها مصورة في قصرها، كما ذكرناه في شبديز ، وللشعراء فيها وفي صورتها التي هناك أشعار قد ذكرت بعضها في شبديز » .

كانت البلاد العربية قبل الاسلام كثيرةالاهتمام بتعاهد الميـــاه والري والفلاحـــة والشجر والنبات • وذلك بحفر الآبار وبناء السدود (كسـد مأرب) وشـق الأفـلاج أي القنوات الباطنـــة والمكشوفـة والكظائم أيالقنوات بين آبار متقاربة كما في أطراف شبه الجزيرة العربية وأرجائها وباعتماد السواقيوالنواعير وغيرها فنشأت فيها واحات خضراء طبيعيـة وصنعيـة متعددة بقيت حتى عهـودالاسلام • ولما بزغ هذا الدين واهتدىالناس نهـدوا الى العلـوم بشتى أنواعهـا ونهضوالاستجلاء غوامض الطبيعة لأن كل كشف عن سر من أسرارها وسنة من السنن التيأودعهاربها فيها يقرب من الله عز وجـل فبرعوا في مختلف المعارف وزادوا على ما حصله متقدموهم مـن العرب الأوائل والأنبـاط والأكاديين والبابليين واليونان والفرس والهنودوغيرهم•ومن العلوم التي أتقنوها اتقاناً بالغاً علـوم النبات والفلاحة ومعالجة الأرض واستصلاحهافلم يتركوا جانباً من جوانب النبات منفصيلة ونوع وجنس ورتبة الا درسوه ولا حالاً منأحواله مـن شطء ونمو واخضرار وايراق وازهار واثمار وكذلك مـن هيج واصفراروذبول ويبس وتهشم وتحطم الا وصفوهـا وسموها •

وقد نوه القرآن الكريم بقيمة المـاء :« **وجعلنا مـــن المـــاء كل شـيء حـــي** » (٣٠/٢١) ووصف اهتزاز الأرض وربوّها وإنباتها غب المطر : « **وترى الأرض هامدة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وانبتتمن كل زوج بهيج** » (٢٢/ ٥) واسترعـى أنظار الناس نحو بهجـة النبـات والأشجاروالدوح والاثمـار : « **وهو الذي أنزل مـن السماء ماء فاخرجنا به نبات كل شيءفاخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعهـا قنوان دانيـة وجنات مـن أعنابوالزيتون والرمان مشتبهـاً وغير متشابـــه انظروا الى ثمره اذا أثمر وينعه ، ان فيذلكلآيات لقوم يؤمنون** » (٦/٩٩) كما أكـد عجائب الطبيعة التي برأها والتي هي مواطناعتبار الخلق : « **وآية لهم الأرض الميتـــة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه ياكلون • وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون • لياكلوا من ثمره وما عملتهأيديهم أفلا يشكرون • سبحان الذي خلـق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهمومما لا يعلمون** » (٣٦/٣٣ـ٣٦) كذلـك وصف للمؤمنين ما أعد لهم من نعيم الجنانوحثهـم علـى عمارة الأرض والاستفـادة مـن خيراتهـا والتمتـع الحلال بزينتهـا :« **قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعبـاده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنـوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كـذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون** » (٧/٣٢) •

ولذلك كله لا غرو أن يقبل المسلمون الذين فهموا كنه الرسالة وفحواها الى العمل المخلص المؤدي الى الخير في كل سبيل • والذييهمنا هناهو سبيل الفلاحة والزراعةفترجموا وألفوا كتباً متعددة في هذا الميدان • وكثربين العلماء لغويون أحصـوا الألفاظ الدالة على مـا يتعلق بالنبات والشجر ، وعلمـاءنباتيون وصفوا ما تدارسـوه مـن النبـات والشجـر ، وعشابون أبانـوا خصائص كل عشب ، وأطباء وصيدلانيون أبرزوا الأدوية المفردة لكل عشب والأدوية المركبةمن مختلفالعقاقـير •

وغـدت الفلاحة علماً · جـاء في كتاب« مفتـاح السعادة ومصباح السيادة » لطاش كبرى زاده أنهـا « علم يتعرّف منه تدبـير النبات مـن أول نشوئه الـى منتهى كمـاله باصلاح الأرض إما بالماء أو بما يخلخلهـا ويحميها مـن المعفنات كالسماد ونحـوه أو يَحْمُيها في أوقات البرد مع مراعاة الأهوية ·فيختلف باختـلاف الأماكـن ، ولذلك تختلف قوانـين الفلاحة باختلاف الأقاليم · ومنفعته زكـاة(*) الحبوب والثمار ونحوهما · وهـو ضروري للانسان في معاشه، ولذلك اشتق اسمه من الفلاح وهو البقاء · ومن لطائفه ايجـاد بعض نتائجه في غـير أوانـه واستخراج بعض مباديه من غير أصله وتركيب الأشجار بعضها ببعض الى غير ذلك » · ثم يورد المؤلف مثلاً على أثر النبات في النفس فيقول : « ذكـر أبو بكر بن وحشية في كتابه المسمى بالفلاحة عـن النبط أن مـن دار حول شجرة الخطمي وتطلـع بالنظر الى وردها وأدام ذلك فانهـا تحدث فرحاً في النفس وتزيل عنه الهم والحزن والغـم » ·

والى جانب ذلك كله عمد الأثرياء والأمراء والملوك الى تزيـين ساحات قصـورهم بحدائـق بديعـة وبساتين أنيقـة زيادة على الحقول المزروعة للغـلال والثمار · وذلك في أطوال البلاد العربية والاسلامية وعروضها من الأندلس الى مشارف الصين ·

ولا بد من التنويه بالديارات التي انتشرت في البلاد العربية انتشار الزهر في المروج وهي جمع دير(*)، أي بيت يتعبد فيه الرهبان ولا تكاد تكون في المدن الكبيرة وانما تكون في الأرياف والبراري وفي الجبال أو على ضفاف الأنهار ، وكل دير يشتمل على بيعة أو كنيسة وعلى صوامع يقيم بها الرهبان وعلى أخرى تقيم بهـا الراهبات ولا يخلو من دور ضيافة ينزلها زوار الدير أو المجتازون به· وتتفاوت الديارات في الفخامـة واتساع الرقعة وطيب المرافق والبساتين والمزارع الملحقة بها · وهي منتجعات يؤمهـا الناس مسيحيين ومسلمين في أعياد القديسين والمناسبات الدينية ولا سيما في أوقات الربيع أو في أثناء الرحلات · وإذا رجـع المرء الى كتاب الديارات لأبي الحسن علي بن محمد المعروف بالشابشتي (توفي سنة ٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) وطالع فيه الأديرة التي تنيف على الخمسين ، آنس متاعاً محبباً وبهجة تنبعث من وصف كل دير ومن الشعر الرقيق الذي قيـل فيـه ومن تلك الحدائق والكروم والنخيل والرياحين التي تحدق به ومن الألفة العميقة بـين الدينين المستندين الى المحبـة والأخوة وخدمـة الانسان والمجتمع والمتجهين نحو صفاء الروح وتزكية النفس والعبادة ، على أن بعض المُجّان كانوا يغتنمون ذلـك للفسحة والنزهة والشراب واللهو ·

★ الزكاة هنا بمعنى النماء والخصب ·

★ تذكر غالبية معجمات اللغة للدير جمعا واحدا وهو أديار · ولكن ياقوتا في مادة الدير من معجم البلدان يورد نقلا عن الفراء « ويقال دَيْر ودِيَرَة وأديار وديـران ودارة ودارات وأديرة ودِيَر ودور ودوران وأدوار ودِوار وأدورة » ، ولكن أكثر هذه الجموع ذكرها علماء اللغة جمعا للدار· وسبب هذا الاشتراك هو أن الدير من اللغات في الدار · ويقول ياقوت : ولعله بعد تسمية الدار به خصص الموضع الذي تسكنه الرهبان به وصار علما له ·
ثم يذكر في مادة ديارات الأساقف : « الديارات جمـع دير · »
أو هو جمع الجمع لأن الدير يضم عدة دور ·

كل قطر من أقطار الوطن العربي يمكن أن يكتب سفر خاص في حدائقه السابقة وبساتينه السالفة ومنازهه الوارفة ومواطنها في الأزمنة الخالية وآثارها في الأزمنة الحاضرة. ولكنا هنا نقتصر على بعض النصوص لنستبين من ورائها ملامح تلك الحدائق وخصائصها وتركيبها وما فيها من أنواع النبات والطير والحيوان والمرافق والسلوك والاستعمال ونقتفي لأجل ذلك سبيل السير الشعبية وأهمها عندنا هنا كتاب ألف ليلة وليلة ، ثم الشعر العربي الذي هو ديوان العرب والذي يلم الماماً ببعض تلك الحدائق والقصور، ويشير اشارات تحتاج الى توقف وتأمل لادراك مضامين تلك الاشارات .

لقد كثرت الحدائق والفراديس والبساتين في الحضارة العربية الاسلامية اذ ورثت هذه الحضارات مكاسب الحضارات السالفة وزادت عليها وتفننت تفنناً جعل أنظار العالم كله تشخص اليها والى منجزاتها في كل ميدان. في ليلة ٨٢٦ من ألف ليلة وليلة نجد وصفاً لبستان « مشيد الأركان رفيع البنيان له باب مقنطر كأنه ايوان » ، كما نجد وصفاً لأنواع الفاكهة والأشجار فيه ولصنوف الطيور والى لواوين فيه ، وما في هذه اللواوين من أثاث بديع ، وللحفلات والولائم ومجالس اللهو التي تنعقد في آبهائها وزواياها وأجنحتها . ونحن نكفي القارىء الكريم الرجوع الى هذا الكتاب فنورد ما تتحدث به شهر زاد في ليالي ٨٢٦ و٨٢٧ و٨٢٨ و٨٢٩ و٨٣٠ و٨٣١ (المطبعة العثمانية المصرية) . ان هذا الحديث يشف عما شاهده الشعب ويتصوره أو يتخيله بالاستناد الى ما يراه والى ما يزاوله من أمور ومرافق .

حكاية علي نور الدين مع مريم الزنارية*

(وفي ليلة ٨٢٦) قالت : ومما يحكى أيها الملك السعيد أنه كان في قديم الزمان وسالف العصر والأوان رجل تاجر بالديار المصرية يسمى تاج الدين وكان من أكابر التجار ومن الأمناء الأحرار ، الا أنه كان مولعاً بالسفر الى جميع الأقطار ويحب السير في البراري والقفار والسهول والأوعار وجزائر البحار في طلب الدرهم والدينار ، وكان له عبيد ومماليك وخدم وجوار وطالما ركب الأخطار وقاسى في السفر ما يشيب الأطفال الصغار ، وكان أكثر التجار في ذلك الزمان مالاً وأحسنهم مقالاً صاحب خيول وبغال وبخاتي وغرائر وأعدال وبضائع وأموال وأقمشة عديمة المثال ، من شدود حمصية وثياب بعلبكية ومقاطع سندسية وثياب مرزوية وتفاصيل هندية وأزرار بغدادية وبرانس مغربية، ومماليك تركية وخدم حبشية وجوار رومية وغلمان مصرية ، وكانت غرائر أحماله من الحرير لأنه كان كثير الأموال بديع الجمال مائس الأعطاف شهي الانعطاف ،وكان لذلك التاجر ولد ذكر يسمى علياً نور الدين كأنه البدر اذا بدر ليلة أربعة عشر بديع الحسن والجمال ظريف القد والاعتدال ، فجلس ذلك الصبي يوماً من الأيام في دكان والده على جري عادته للبيع والشراء والأخذ والعطاء وقد دارت حوله أولاد التجار ،فصار

★ حافظنا ما استطعنا على الأصل .

هو بينهم كأنه القمر بين النجوم بجبين أزهروخد أحمر وعذار أخضر وجسم كالمرمر كما قال فيه الشاعر :

ومليـــح قال صفنـــي أنـت في الوصـف فصيـح
قلـت قـولا باختصـار كـل مـا فيـك مليـح

فعزمه أولاد التجار وقالوا له يا أخانا نور الدين اننا نشتهي في هذا اليوم أن نتفرج نحن وأنت في البستان الفلاني ، فقال لهـمحتى أشاور والدي فاني لا أقدر أن أروح الا باجازته ، فبينما هم في الكلام واذا بوالدهتاج الدين قد أتى فنظر اليه وقال يا أبي ان أولاد التجار قد عزموني لأجل أن أتفرج أناواياهم في البستان الفلاني ، فهل تأذن لي في ذلك ؟ فقال نعم يا ولدي ، ثم انه أعطاه شيئامن المال وقال له توجـه معهم ، فركب أولاد التجار حميراً وبغالا وركب نـور الدين بغلةوسار معهم الى بستان فيه ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ، وهو مشيـد الأركان رفيـعالبنيـان له باب مقنطر كأنـه ايوان وبـاب سماوي يشبه أبواب الجنان وبوابـه اسمـهرضوان ، وفوقه مائة مكعب عنب من سائر الألوان ، الأحمر كأنه مرجان والأسود كأنهأنوف السودان والأبيض كأنه بيض الحمام ، وفيـه الخوخ والرمان والكمثرى والبرقوقوالتفاح كل الأنواع مختلفة الألوان صنوان وغير صنوان، وأدرك شهرزاد الصباح فسكتتعن الكلام المباح .

(وفي ليلة ٨٢٧) قالت : بلغني أيها الملك السعيد أن أولاد التجار لما دخلوا البستان رأوا فيه كل ما تشتهي الشفة واللسان ، ووجدوا العنب مختلف الألوان صنواناً وغـير صنوان ، كما قال فيه الشاعر :

عنب طعمـه كطعـم الشـراب حالك لونـــه كلون الغـراب
بـين أوراقـــه زهـــا فتراه كبنـان النساء بعـد الخضاب

ثم انتهوا الى عريشة البستان فرأوا رضوان بواب البستان جالساً في تلك العريشة كأنـه رضوان خازن الجنان ، ورأوا مكتوباعلى باب العريشة هذين البيتين :

سقى الله بستاناً تدلت قطوفـــه فمالت بها الأغصانمن شدة الشرب
اذا رقصت أغصانه بيد الصبـــا تنقطهـا الأنـواء باللؤلؤ الرطب

وفي ذلك البستان فواكه ذات أفنان ، وأطيار مـن جميع الأصناف والألوان ، مثل فاخت وبلبـل وكروان وقمري وحمام يغرد على الأغصان ، وأنهار بها الماء جار ، وقد راقت تلك المجاري بأزهار وأثمار ذاتلذات،كما قال فيها الشاعر هذه الأبيات :

سرت النسيم على الغصون فشابهت حسنـــاء تعثـر في جميـل ثيابهـا
وحكت جداولها السيوف اذا انتضت أيـدي الفوارس من غلاف قرابهـا

وفي ذلك البستان تفاح سكري ومسكي يدهش الناظر ، كما قال فيه الشاعر :

تفاحـــة جمعت لونين قـد حكيـــا خدي حبيب ومحبوب قـد اجتمعـــا
لا حا على الغصن كالضدين منعجب فذاك أسـود والثانـي بـــه لمعـــا
تعـانقـــا فبـدا واشٍ فـراعهمـا فاحمر ذا خجـلا واصفر ذا ولعـــا

وفي ذلك البستان مشمشلوزي وكـافـوري وجيلاني وعنتابي كما قال فيه الشاعر :

والمشمش اللـوزي يحكـي عاشقـاً جـــاء الحبيب لـــه فحـير لبـــه
وكفاه مـــن صفـة المتيم ما بـــه يصـفر ظـاهـره ويكسـر قلبـــه

وفي ذلك البستـــان برقوق وقراصيا وعناب ، تشفي السقيم من الأوصاب ، والتين فوق أغصانـــه أحمر وأخضر ، يحير العقولوالنواظر كما قال فيه الشاعر :

كأنما التـين يبدو منـــه أبيضـــه مع أخضر بين أوراق من الشجـــر
أبناء روم على أعلى القصور وقـد جن الظلام بهم باتـوا على حـــذر

وفي ذلك البستان من الكمثرى الطوري والحلبي والرومي ماهو مختلف الألوانصنوان وغير صنوان، وأدرك شهرزاد الصباح فسكتتعن الكلام المباح .

(وفي ليلة ٨٢٨) قالت : بلغني أيها الملـك السعيـد أن أولاد التجار لمـا نزلـوا البستان رأوا فيـه مـن الفواكه مـا ذكرناه ووجدوا صنواناً وغير صنوان ما بين أصفر وأخضر يدهش الناظر كما قال فيه الشاعر :

يهنيـك كمثـرى غـــدا لونهـــا لـــون محب زائـــد الصفـــــرة
شـبيهـة بالبكـــر في خـــدرهـــا والوجـــه منهـــا مسبـل الستـرة

وفي ذلك البستان من الخوخ السلطانيما هو مختلف الألوان من أصفر وأحمر كما قال فيه الشاعر :

كانما الخـــوخ لـدى روضـــه وقد كُسي مـــن حمرة العنـدم
بنـــادق مـــن ذهـب أصفـــر قـد خضبت في وجههـــا بالـدم

وفي ذلك البستان من اللوز الأخضر ماهو شديد الحلاوة يشبه الجمار ، ولبـه مـن داخل ثلاثة أثواب من صنعة الملك الوهاب ،كما قال فيه الشاعر :

ثلاثـة أثـواب على جسد رطب مخالفـة الأشكال مـــن صنعة الرب
تـريـه الردى في ليلـه ونهـاره وان يكـن المسجون فيهـــا بلا ذنب

وفي ذلك البستان النارنج كأنه خولنجان كما قال فيها الشاعر الولهان :

وحمراء ملء الكف تزهو بحسنها فظاهرهـا نار وباطنهـا ثلـج

فمن عجب ثلج من النار لم يذب ومن عجب نار وليس لهـا وهـج

وفي ذلك البستان الكباد متدلياً في أغصانه كنهود أبكار تشبه الغزلان وهو على غاية المراد كما قال فيه الشاعر وأجاد :

وكبـادة بـين الريـاض نظرتهـا على غُصُـن رطب كقـامـة أغيـد

اذا ميلتهـا الريـح مالت كـأكـرة بـدت ذهبـاً في صولجـان زبرجـد

وفي ذلك البستان الليمون زكي الرائحة يشبه بيض الدجاج، ولكن صفرته زينة مجانيه وريحه يزهو لجانيـه كما قال بعض واصفيه :

أمـا تـرى الليمـون لمـا بـدا يأخـذ مـن اشـراقـه بالعيـان

كـانـه بيـض دجـاج وقـد لطخـه الخمسـة بالزعفـران

وفي ذلك البستان من سائر الفواكه والرياحين والخضراوات والمشمومات من الياسمين والفاغية والفلفـل والسنبل العنبري والوردبسائر أنواعه ، ولسان الحمل والآس وكامل الرياحين من جميع الأجناس ، وذلك البستان من غير تشبيه كأنه قطعة من الجنان لرائيه ، اذا دخله العليل خرج منه كالأسد الغضبان ولايقدر على وصفه اللسان لما فيه من العجائب والغرائب التي لا توجد الا في الجنان ، كيف لاواسم بوابه رضوان؟ لكن بين المقامين شتان!! فلما تفرج أولاد التجار في ذلك البستان جلسوا بعد التفرج والتنزه على ليوان (تحريف ايوان) مـن لواوينـه وأجلسوا نورالديـن في وسط الليوان ، وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المبـاح ٠

(وفي ليلة ٨٢٩) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن أولاد التجار لما جلسوا في الليوان وأجلسوا نورالدين في وسط الليوان على نطع من الأديم المزركش ، متكئاً على مخدة محشوة بريش النعـام وظهارتها مدورة سنجابية ثم ناولوه مروحة مـن ريش النعام مكتوباً عليها هـذان البيتـان :

ومروحـة معطـرة النسـيم تـذكـر طيب أوقـات النعيـم

وتهـدي طيبهـا في كـل وقت الـى وجـه الفـتى الحـر الكريـم

ثم ان هؤلاء الشبان خلعوا ما كان عليهم مـن العمـائم والثيـاب وجلسوا يتحـدثون ويتنادمون ويتجاذبون أطراف الكلام بينهم ، وكل منهم يتأمل في نورالدين وينظر الى حسن صورته ، وبعد أن اطمأن بهم الجلوس ساعة من الزمان أقبل عليهم عبد وعلى رأسه سفرة طعام فيها أواني مـن الصيني والبلور ، لأن بعض أولاد التجار كان قد وصى أهل بيته بها قبـل خروجه الى البستان ، وكـان في تلك السفرة كثير مما درج وطار وسبح في البحار

كالقطا والسمان وأفراخ الحمام وشياه الضأن وألطف السمك ، فلما وضعت تلك السفرة بينهم تقدموا وأكلوا بحسب الكفاية ، ولما فرغوا من الأكل قاموا عن الطعام وغسلوا أيديهم بالماء الصافي والصابون الممسك ، وبعدذلك نشفوا أيديهم بالمناديل المنسوجة بالحرير والقصب وقدموا لنورالدين منديلاً مطرزاً بالذهب الأحمر فمسح به يديه وجاءت القهوة فشرب كل منهم حسب مطلوبه ، ثم جلسوا للحديث واذا بخولي البستان جاء ومعه سفرة المدام فوضع بينهم صينية مزركشة بالذهب الأحمر وأنشد يقول هذين البيتين :

هتف الفجر بالسنا فاسق خمراً عانساً تجعل الحليم سفيها
لست أدري من لطفها وصفاها أبكأس ترى أم الكأس فيها

ثم ان خولي البستان ملأ وشرب ودار الدور الى أن وصل الى نورالدين ابن التاجر تاج الدين ، فملأ خولي البستان كأساً وناوله اياه ، فقال له نورالدين أنت تعرف أن هذا شيء لا أعرفه ولا شربته قط لأن فيه إثماً كبيراً وقد حرّمه في كتابه الرب القدير ، فقال البستاني يا سيدي نورالدين وان كنت ما تركت شربه الا من أجل الاثم فان الله سبحانه وتعالي كريم حليم غفور رحيم يغفر الذنب العظيم ، ورحمته وسعت كل شيء ، ورحمة الله على بعض الشعراء حيث قال :

كن كيف شئت فان الله ذو كرم وما عليك اذا أذنبت من باس
الا اثنتين فلا تقربهما أبداً الشرك بالله والاضرار بالناس

ثم قال واحد من أولاد التجار بحياتي عليك يا سيدي نورالدين أن تشرب هذا القدح ، وتقدم شاب آخر وحلف عليه بالطلاق ، وآخر وقف بين يديه على أقدامه ، فاستحى نورالدين وأخذ القدح من خولي البستان وشرب منه جرعة ثم بصقها وقال هذا مرّ !! فقال له خولي البستان يا سيدي نورالدين لولا أنه مرّ ما كانت فيه هذه المنافع ، ألم تعلم أن كل حلو اذا أكل على سبيل التداوي يجده الآكل مراً ؟ وأن هذه الخمر منافعها كثيرة ، فمن جملة منافعها أنها تهضم الطعام ، وتصرف الهم والغم ، وتزيل الأرياح ، وتروق الدم ، وتصفي اللون ، وتنعش البدن ، وتشجع الجبان ، ولو ذكرنا منافعها كلها لطال علينا شرح ذلك ، وقد قال بعض الشعراء :

شربنا وعفو الله من كل جانب وداويت أسقامي بمرتشف الكاس
وما غرّني فيها وأعرف اثمها سوى قوله فيها منافع للناس

ثم ان خولي البستان نهض قائماً على أقدامه من وقته وساعته وفتح مخدعاً من مخادع ذلك الايوان وأخرج منه قمع سكر مكرر وكسر منه قطعة كبيرة ووضعها لنورالدين في القدح وقال يا سيدي ان كنت تهيبت شرب الخمر من مرارته فاشرب الآن فقد حلا ، وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح(*) .

★ هذا النص يدل على أثر أصدقاء السوء وينبه عليه .

(وفي ليلة ٨٣٠) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن الخولي قال لنورالدين ان كنت تهيبت شرب الخمر من مرارته فاشرب الآن فقد حلا ، فعند ذلك أخذ نورالدين القدح وشربه ، ثم ملأ الكأس واحد من أولاد التجار وقال يا سيدي نورالدين أنا عبدك ، وكذا الآخر قال أنا خدامك ، وقام الآخر وقال من أجل خاطري ، وقام الآخر وقال بالله عليك يا سيدي نور لدين اجبر بخاطري ، ولم يزل العشرة من أولاد التجار بنورالدين الى أن أسقوه عشرة أقداح كل واحد قدحاً ، وكان نورالدين باطنه بكر عمره ما شرب خمراً قط الا في تلك الساعة ، فدار الخمر في دماغه وقوي عليه السكر فوقف على حيله وقد ثقل لسانه واستعجم كلامه وقال يا جماعة والله أنتم ملاح وكلامكم مليح ومكانكم مليح الا أنه يحتاج الى سماع طيب، فان الشراب بلا سماع عدمه أولى من وجوده ، كما قال فيه الشاعر هذين البيتين :

أدرها بالكبير وبالصغير ... وخذها من يد القمر المنير

ولا تشرب بلا طرب فاني ... رأيت الخيل تشرب بالصفير

فعند ذلك نهض الشاب صاحب البستان وركب بغلة من بغال أولاد التجار وغاب ثم عاد ومعه صبية مصرية كأنها ليّة طرية أو فضة نقية أو دينار في صينية أو غزال في برية !! بوجه يخجل الشمس المضيئة وعيون بابلية ، وحواجب كأنها قسي محنية وخدود وردية وأسنان لؤلؤية ومراشف سكرية ، وعيون مرخية ونهود عاجية وبطن خماصية(*) وأعكان مطوية وأرداف كأنهن مخدات محشية، وفخذين كالجداول الشامية وبينهما شيء كأنه صرة في بقجة مطوية ، كما قيلت فيه هذه الأبيات :

ولو أنها للمشركين تعرضت ... رأوا وجهها من دون أصنامهم ربا

ولو أنها في الغرب لاحت لراهب ... تخلى سبيل الشرق واتبع الغربا

ولو تفلت في البحر والبحر مالح ... لأصبح ماء البحر من ريقها عذبا

وتلك الصبية كأنها البدر اذا بدر في ليلة أربعة عشر ، وعليها بدلة زرقاء بقناع أخضر فوق جبين أزهر تدهش العقول وتحير أرباب المعقول ، وأدرك شهر زاد الصباح فسكتت عن الكلام المباح .

(وفي ليلة ٨٣١) قالت بلغني أيها الملك السعيد أن خولي البستان جاءهم بالصبية التي ذكرنا أنها في غاية الحسن والجمال ورشاقة القدّ والاعتدال ، كأنها المرأة المعنية بقول الشاعر :

أقبلت في غلالة زرقاء ... لازوردية كلون السماء

فتحققت في الغلالة منها ... قمر الصيف في ليالي الشتاء

★ البطن مذكر وتانيثه لغة . وخماصية نسبة الى جمع الصفة . وفي الأصل خماسية .

ثم ان الشاب خولي البستان قال لتلك الصبية اعلمي يا سيدة الملاح وكل كوكب لاح ، اننا ما قصدنا بحضورك في هذا المكان الا أن تنادمي هذا الشاب المليح الشمائل سيدي نور الدين فانه لم يأت محلنا الا في هذا اليوم، فقالت له الصبية ليتك كنت أخبرتني لأجل أن أجيء بالذي كان معي ، فقال لها سيدتي أنا أروح وأجيء به اليك ، فقالت افعل ما بدا لك ، فقال لها اعطيني أمارة فأعطته منديلا ، فعند ذلك خرج سريعاً وغاب ساعة زمانية ثم عاد ومعه كيس أخضر من حرير أطلس بشنكلين من الذهب ، فأخذته منه الصبية وحلته ونفضته فنزل منه اثنتان وثلاثون قطعة خشب ، ثم ركّبت الخشب في بعضه على صورة ذكر في أنثى وأنثى في ذكر وكشفت عن معاصمها واقامته فصار عوداً محكوكاً مجروداً صنعة الهنود ، ثم انحنت عليه تلك الصبية انحناءة الوالدة على ولدها وزغزغته بأنامل يدها فعند ذلك أن العود ورن ولأماكنه القديمة حن ، وقد تذكر المياه التي قد سقته والأرض التي نبت منها وتربى فيها ،وتذكر النجارين الذين قطعوه والدهانين الذين دهنوه والتجار الذين جلبوه والمراكب التي حملته ،فصرخ وصاح وعدّد وناح ، وكأنها سألته عن ذلك كله فأجابها بلسان الحال ·

★ ★ ★

هذا والخليفة الذي بذل كثيراً في عمارة القصور واحداق الحدائق واقامة المنازه ومواطن الاستجمام جعفر المتوكل العباسي · وقد تغنى شاعره ونديمه الوليد بن عبادة البحتري الشامي الأصل في جملة أشعاره بتلك المنازه والحدائق والقصور في مدينة سامراء(*) · ونجد أوصافاً لها في كُتُب التاريخ ومعجم البلدان وغيره من الأسفار · ولكنا نؤثر أن نتصفح طائفة من تلك الأشعار تتضمن تلميحات مفيدة واشارات معبرة عن تكوين تلك المواطن وما فيها من مرافق ومفاتن ·

من تلك الحدائق الواسعة حير الحيوان يقع خارج مدينة سر من رأى على شكل مستطيل تقريبي طول محيطه نحو ثلاثين كيلو متراً ومساحته تناهز ثلاثة وخمسين كم٢ وفي هذا الحير من الحيوان ما يقرب عدده من ألفين ·

أشار الى ذلك أبو عبادة في قصيدة يمدح بها المتوكل غير قصيدة البركة المشهورة ولكنها على الوزن والقافية أنفسهما يشبه ملكه بملك سليمان الذي خضع له الوحش والناس :

ملك كملك سليمان الذي خضعت ... له البرية قاصيها ودانيها
وطاعة الوحش اذ جاءتك من خَرِق ... أحوى وأدمانة كُحْل مآقيها
كالكاعب الرود يخفى في ترائبها ... رَدْعُ العبير ويبدو في تراقيها

★ في معجم البلدان « مادة سامراء » يذكر ياقوت أعمال المتوكل العمرانية في هذه المدينة ونفقاتها ·

ألفان جاءت على قدر مسارعة ... الى قبول الذي حاولتَه فيها
ان سرت سارت وان وقّفتها وقفت ... صوراً اليك بالحاظ تواليها
يَرِعْنَ منك الى وجه يرين له ... جلالة يكثر التسبيح رائيها
حتى قطعت بها القاطول وافترقت ... بالحير في عرصة فيح نواحيها
فنهر نيزك ورد من مواردها ... وساحة التل مغنى من مغانيها
لولا الذي عرفته فيك يومئذ ... لما أطاعك وسط البيد عاصيها

هذا ونهر نيزك الذي ذكره الشاعر حفره المتوكل ليروي الحير(*) ·

وقد أشار البحتري الى وحش القصر فيقصيدته التي رثى بها المتوكل :

ولم أنس وحش القصر اذ ريع سربه ... وإذ ذعرت أطلاؤه وجآذره

ويبدو من أشعار البحتري أن تلك الحيوانات كانت تعيش في الحير عيشة قريبة من حياتها في مواطنها الأصلية · وكان مع تلك الحيوانات ليوث ضارية · وقد وصف الشاعر الغابة المرتفعة المشتبكة التي تعيش فيها الليوث وتقوم على نهر نيزك نفسه وذلك حين مدح الفتح بن خاقان وزير المتوكل ونديمه فنوّه بمنازلته لأحد تلك السباع وبجمال تلك الغابة ·

غداة لقيت الليث والليث مخدر ... يحدد ناباً للقاء ومخلبا
يحصنه من نهر نيزك معقل ... منيع تسامى غابه وتأشبا
يرود مغاراً بالظواهر مكثباً ... ويحتل روضاً بالأباطح معشبا
يلاعب فيه أقحواناً مفضضاً ... يبصّ وحوذاناً على الماء مذهبا
اذا شاء غادى عانة أو عدا على ... عقائل سرب أو تقنّص ربربا
يجر الى أشباله كل شارق ... عبيطاً مدمّى أو رميلاً مخضبا
شهدت لقد أنصفته يوم تنبري ... له مصلتاً عضباً من البيض مقضبا
فلم أر ضرغامين أصدق منكما ... عراكاً اذا الهيّابة النكس كذّبا
هزبر مشى يبغي هزبراً وأغلب ... من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا
أدلّ بشغب ثم هالته صولة ... رآك لها أمضى جناناً وأشغبا
فأحجم لما لم يجد فيك مطمعاً ... وأقدم لما لم يجد عنك مهربا
فلم يُغنه أن كرّ نحوك مقبلا ... ولم ينجه أن حاد عنك منكّبا
حملت عليه السيف لا عزمك انثنى ... ولا يدك ارتدت ولا حدّه نبا

★ الحير هو البستان · هذا وقصر الحير في سورية تاريخي مشهور كانت له حديقة حيوان من نوع حير المتوكل أنشاهما الخليفة هشام الأموي ويبلغ طول الحديقة زهاء تسعة كيلو مترات وعرضها نحو الكيلو متر محصنة بسور على أطرافها ·

لم يكن الحير مجرد حديقة حيوان ولا مكان للصيد والقنص وانما كان متنزهاً للخليفه وموطن لهو واستجمام ·

وكان ثمة قصر للمتوكل في جنوبي الحيركشفت آثاره ولعل هذا القصر قد أنشيء جرياً على عادة الفرس القدماء اذ كانوايجعلون حير الوحوش متصلا بالقصر الملكي ، والفتح بن خاقان فارسي الأصل من أبناءالملوك ، وهو أديب وشاعر ومؤلف · وقدقتل مع المتوكل عند نكبته واستطاع البحتري أنيفلت اذ ذاك ·

أما بركة البحتري التي اشتهرت بوصفهلها فكانت أمام القصر الملكي في جانب من جوانب الحير · وشعره فيها من القصيدةالتييمدح بها المتوكل وأولها :

ميلوا الى الدار من ليلى نحيّيها نعم ونسألها عن بعض أهليها

وقد وصفها بالحسناء · وكانت تقوم حولها مغاني الجواري :

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات اذا لاحت مغانيها

وهي في الزينة والبهاء تفوق جمال البحر وروعته :

بحسبها أنها في فضل رتبتها تعد واحدة والبحر ثانيها

ولم تكن بعيدة عن دجلة · فهي ودجلةتتنافسان في الحسن والبهاء :

ما بال دجلة كالغيرى تنافسها في الحسن طوراً وأطواراً تباهيها

ولكن الفوز في المنافسة كان من نصيبهااذ لا عيب فيها ولا في بنائها لأن يد الخليفة تتعاهدها :

أما رأت كالىء الاسلام يكلؤها من أن تعاب وباني المجد يبنيها

ولما كان العرب ينسبون الى الجن نفائسالصنائع كان الناظر اليها يحسب أن الجن هم الذين تولوا ابداعها :

كأن جن سليمان الذين ولوا ابداعها فأدقوا في معانيها

حتى ان الملكة بلقيس لو مرت بها لتوهمت أنها صرحها لتمام اتقانها :

فلو تمر بها بلقيس عن عُرُض قالت هي الصرح تمثيلا وتشبيها

تندفع فيها المياه من علٍ عجلى كما تتسابق الخيل حين يبدأ رهان الحلبة :

تنصب فيها وفود الماء معجلة كالخيل خارجة عن حبل مُجريها

وكأن تلك الأمواه النقية سبائك سائلةمن اللجين :

كأنما الفضة البيضاء سائلة من السبائك تجري في مجاريها

واذا هبت نسمات الصبا أبرزت فوق سطح الماء طرائق مجعدة تحكي حواشي الدروع المعدنية المصقولة :

اذا علتها الصبا أبدت لها حُبُكا مثـل الجواشن مصقولاً حواشيهـا

تبتسم مع شعاع الشمس وتبكي مع بكاء المطر :

فحاجب الشمس أحيـاناً يضاحكها وريّـق الغيث أحيـاناً يباكيهـا

وفي الليل تتلامح في جوانبها النجوم فكأنها سماء تحت سماء :

اذا النجـوم تراءت في جـوانبهـا ليـلاً حسِبْتَ سماء ركبت فيها

وكما تحلّق الطيور وتنقض في السماء كذلك تعـوم الأسماك بأوساطها المجنحـة ولا تكاد تبلغ غايتها مع أنها محصورة فيها لتباعد الحوض الواسع في أدناها والبهو المرتفـع في أعلاها :

لا يبلـغ السمك المحصور غايتهـا لبعـد ما بـين قاصيهـا ودانيهـا
يعمن فيهـا بأوسـاط مجنّحـةٍ كالطير تنقضّ في جـوّ خوافيهـا
لهـن صـحن رحيب في أسـافلهـا اذا انحططـن وبهـو في أعاليهـا

وثمة تمثال للدلفين منصوب على أحـد جوانبها • وكأن الأسماك تنظر الى صورتـه تستأنس بها فتحسب أنها في البحر وهو كأنما يرنو اليها من لَحاظَيْـه :

صورٌ الى صورة الدلفين يؤنسها منـه انزواء بعينيـه يوازيهـا

تخرج مياهها المتدفقة منها فتسقى البساتين البعيدة وتنوب عـن انبجاس الغيث مـن كفاف الديم • وكأنهـا في هـذه السقاية كرم الخليفة الذي يصل الى الأباعد • كيف لا وقد تسمت بالجعفرية نسبة الى اسمه ، وازدادت جمالاً بهذه النسبة :

تغنى بساتينهـا القصوى برؤيتها عـن السحائب منحـلاً عزاليهـا
كأنهـا حـين لـجّت في تدفقهـا يـد الخليفـة لمـا سـال واديهـا
وزادها زينـة مـن بعـد زينتها أنْ اسمه حـين يدعى من أساميها

تحف الرياض البديعـة جوانب البركة أمام البساتين القصوى • وفي مروج الأزهار وعلى أغصان الأشجار طواويس تحكي الأزهار ألوان ريشها كما يحكي ريشها ألوان الأزهار :

محفوفـة بريـاض لا تزال تـرى ريش الطواويس تحكيه ويحكيها

ولمـا أشبهت البركة السماء في جمالهـا ونجومها المتلامحة فيها فقـد نصبت حولهـا دكّتـان (مصطبتان للجلوس) احداهما ازاء الأخـرى كأنهمـا الشعرى العبـور والشعرى الغميصاء في برج الجوزاء أجمل نجوم السماء:

ودكّتَين كمثـل الشعريين غـدت احداهما بـإزا الأخرى تساميهـا

هاتان الدكتان وصفهما أبو عبادة في قصيدة أخرى يمدح المتوكل بها :

قد تمادى الوليّ في هطلانه ... وأتانا الوسميّ في إبّانه
وأرى الدكّتين بينهما أفـ ... ـواف روض كالوشي في ألوانه
في ضروب من حسن نرجسه الغضّ ... ومن آسه ومن زعفرانه
ذاك قصر مبارك تقصر الأعـ ... ـين دون الرفيع من بنيانه

وبنى المتوكل قصراً دعاه بالصبيح ازاء قصر آخر هو المليح قريبين من البركة ومن القصر الملكي . ووصف الوليد هذه القصور مع البركة والجدول الذي يجتاز البركة والنعام التي كانت تدير دواليب تنضح الماء الى الأعلى في قصيدة ثالثة :

قد صفا جانب الهواء ولذّت ... رقة الماء في مزاج المدام
واستتمّ الصبيح في خير وقت ... فهو مغنى أنس ودار مقام
ناظر وجهة المليح فلو ينـ ... ـطق حياه معلناً بالسلام
ألبسا بهجة وقابل ذا ذا ... ك فمن ضاحك ومن بسّام
كالمحبّين لو أطاقا التقاء ... أفرطا في العناق والالتزام
تنفذ الريح جريها بين قطريـ ... ـه فتكبو من ونية وسآم
مستمد بجدول من عباب الـ ... ـماء كالأبيض الصقيل الحسام
فاذا ما توسط البركة الخضـ ... ـراء ألقت عليه صبغ الرخام
فتراه كأنه ماء بحر ... يخدع العين وهو ماء غمام
والدواليب اذ يدرن ولا نا ... ضح يسقي بهن غير النعام
بدع أنشئت لأولى عباد اللـ ... ـه بالركن والصفا والمقام
ان خير القصور أصبح موهو ... باً بكره العدى لخير الأنام
جاور الجعفري وانحاز شبدا ... ز اليه كالراغب المعتام
حلل من منازل الملك كالأنـ ... ـجم يلمعن في سواد الظلام
منفحمات تعيي الصفات فما تدْ ... رك الا بالظن والابهام
فكأنّا نحسها في الأماني ... أو نراها في طارق الأحلام
شوقتنا الى الجنان فزدنا ... في اجتناب الذنوب والآثام

وليس ما ذكرناه الا بعضاً من قصور المتوكل المتعددة ، وقد اتسع هو والذين أتوا بعده من الخلفاء في الزينة والترف وانفاق الأموال دون النظر في مصالح العباد فكان ذلك اشارة الى بداية تدهور الخلافة حين يتترّف فريق من الشعب ويبؤس آخرون ٠

ولا بد لنا هنا من التنويه بدار الشجرة من أبنية المقتدر بالله ببغداد نجد وصفاً موجزاً لها في معجم ياقوت : « كانت داراً فسيحة ذات بساتين مونقة ٠ وانما سُمِّيت بذلك لشجرة كانت هناك من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة مدورة أمام ايوانها وبين شجر بستانها٠ ولها من الذهب والفضة ثمانية عشر غصناً ٠ لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بأنواع الجواهر على شكل الثمار ٠ وعلى أغصانها أنواع الطيور من الذهب والفضة ٠ اذا مرّ الهواء عليها أبانت عن عجائب من أنواع الصفير والهدير ٠ وفي جانب الدار عن يمين البركة تمثال خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ٠ ومثله عن يسار البركة ، قد ألبسوا أنواع المَطارِد يتحركون على خط واحد فيُظَنّ أن كل واحد منهم الى صاحبه قاصد » ٠

هذا من الترف الذي يخرج عن كنه الحضارة العربية الاسلامية وعن مقاصدها الانسانية والاجتماعية ٠

ولسنا هنا في سبيل تقصي القصور والحدائق في غمار تلك الحضارة ٠ ولكن لا بد من الاشارة الى ظلالها الوارفة في الأندلس والى القصر الكبير الذي شرع في بنائه عبدالرحمن الداخل والى قصر الزهراء الذي بدأ بانشائه الخليفة الناصر والى قصر الحمراء الذي بناه ابن الأحمر والى الحدائق والجنّات التي تحف تلك القصور ٠ وكذلك الأمر في أرجاء المغرب العربي ٠ فكتب التاريخ شاهدة على ذلك ٠

ولكنا في ختام هذا الحديث يطيب لنا أن ننوه بالحديقة الفيحاء الغناء ٠ ألا وهي دمشق ٠ نورد هنا وصف ابن جبير لها حين قدمها : « جنة المشرق ، ومطلع حسنه المونق ، وهي خاتمة بلاد الاسلام التي استقريناها ، وعروس المدن التي اجتليناها ٠ قد تحلّت بأزاهير الرياحين ، وتجلّت في حلل سندسية من البساتين ، وحلّت من موضع الحسن بالمكان المكين ، وتزيّنت في منصتها أجمل تزيين ، وتشرفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمه (صلى الله عليهما) منها الى ربوة ذات قرار ومعين ٠ ظل ظليل ، وماء سلسبيل ، تنساب مذانبه انسياب الأراقم بكل سبيل ، ورياض يحيي النفوس نسيمها العليل، تتبرج لناظريها بمجتلى صقيل ، وتناديهم هلموا الى معرّس للحسن ومقيل ٠ قد سئمت أرضها كثرة الماء ، حتى اشتاقت الى الظماء ، فتكاد تناديك الصم الصلاب **[اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب]**(٣٨ـ٤٢) ٠ قد أحدقت البساتين بها احداق الهالة بالقمر ، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر ٠ وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء امتداد البصر ٠ فكل موضع لحظته بجهاتها الأربع نضرته اليانعة قيد النظر ٠ ولله صدق القائلين عنها : ان كانت الجنة في الأرض فدمشق لا شك فيها ، وان كانت في السماء فهي حيث تسامتها وتحاذيها » ٠

ونكتفي من كتاب « نزهة الأنام في محاسن الشام » بهذه الصورة البيانية :

يحكى عن ابن الصائغ الحنفي أنه لما قدم من القاهرة الى دمشق المحروسة نزل في (الجسر الابيض) عند الأمير مجيرالدين بن تميم ونهر ثورا يمر بداره المأنوسة فأجلسه على جانب النهر لأجل برد الهواء ، فرأى شمس الدين ابن الصائغ ما يمرّ من الفواكه على وجه الماء وصار يتناول ويأكل ما استطاب ويضع قدامه منه ما أعجبه ثم التفت لابن تميم وقال له : انت يغنيك هذا النهر عن شراء الفاكهة بفيض فضله العميم • وأنشده في الحال ارتجالاً :

يقول وقد رأى ثورا خليلي يفيض بسائر الثمرات فيضا
أيكفيكم فلا تشرون شيئاً فقلت له نعم ونبيع أيضا

فقال ابن الصائغ : وهذه الفاكهة أليس يرميها في النهر أرباب الغيطان؟ قال له ابن تميم انما هذه من اشتباك الأشجار وانحنائها عليه فيلقيها النسيم عندما تشتمل الأغصان ، وأما البساتنة فانهم يضعون فواكه مجموعة على أبواب البساتين كالزكاة لمن يمرّ بها ويحتاج الى شيء فياخذه من الفقراء والمساكين •

وأخبرت في القديم أن بعض الفقراء يضع مكتله على رأسه ويسرح في طرق البساتين فيعود وقد امتلأ مكتله مما يسقط من الأثمار من غير أن يتناول بيده شيئاً •

(والمكتّل زبيل من الخوص تحمل فيه الفاكهة يسع خمسة عشر صاعاً أي نحو ثلاثة وعشرين كَغ على أقل تقدير) •

وفي البساتين من يزرع أشجاراً للفقراء يعرفونها بالتكرار ، وغالب ما يزرع من ذلك على الطرقات ليقرب تناولها •

وغالب أهل الصالحية يهادون سكان المدينة بالبلح والأترج والكباد ، لنمو حسنه عندهم ونضارته التي هي في ازدياد » •

من غوطة دمشق التي أجمع القدماء على أنها أنزه(*) بلاد العالم وأبدعها ، ومن وادي بردى وضفاف الأردن والشاطىء السوري خرجت وفود الرياحين والورود وأغراس الأزهار تتفتح كمائمها وتتأرج نفحاتها وترنو ألحاظها لتحيي شعوب العالم وتبث نور المودة والمعرفة والتآخي • وليست الأزهار والورود والرياحين الأنيقة التي تشاهد في الغرب الا حفيدات لما سبق • فليكن رونقها وبهاؤها ورياها ونفحاتها عربون صداقة باقية وادئمة بين الناس مهما تقلبت الصروف واضطربت الأحداث •

وكأنما سمعت طيف الغوطة ماثلاً بقربي ينشدني في أوائل آذار هذه الأبيات بين الحلم واليقظة وأنا مستند الى شجرة سنديان أرنو ذاهلاً الى مشهد آلاف آلاف

★ جاء في معجم البلدان « وهي بالاجماع أنزه بلاد الله وأحسنها منظرا وهي احدى جنات الأرض الأربع وهي الصغد والابلة وشعب بوان والغوطة وهي أجلها » •

العرائس البيض عشية زفافهن في هـذهالبقعة الطيبـة وأنتشي بعبـق نسيمهن المسكي المتضوع :

فـن الحدائق واحـات منضّـرة" فيهـنّ للنـاس اسـعاد وسلوان
تلك الخمائل كـم لاحت مواسيةً ان مسّـهم لاعـج مؤذٍ وطغيـان
تلقـاك كالأم في رفـق وتكرمـة وانّ أحلـى خصـال الأم تحنـان
يسري اليهم من الدوح المطيف بهم نسـغ الحياة رشيقاً وهو ريّـان
النـور والظـل والأنسام سانحةً والعطر والطـير والأسجاع صنوان
والمـاء يجري لجينـاً في خمائلـه كمـا جرى بحيـاة الجسم شريان
يا حسنها حـين يجلو حسنها قمر زاهٍ ويغمـرهـا نـور واحسـان
والزهر والورد والنسرين باسمة ثغورها والندى والنـدُ والبـان
نـور" تجسّم في نَوْرٍ تزيّنـه بريشـة اللطف أشـذاء وألـوان
تكاد في الروض تلقى كلَّ جارحة ملذوذها فهي نشوى وهو نشوان
في كل غيثٍ قـوى تنبثّ مسعدةً فالتـرب درّ وفـيروز وعقيـان

★ ★ ★

وفي النفـوس رياض لا يماثلهـا روض على الأرض مهما يحلُ فينان
فازرع بنفسـك أغراساً يباكرها مـن البشاشـة والاحسانِ هتّـان

★ ★ ★

وان تعـذّر بستان أطـوف بـه وأنتشي فحبيب القلـب بسـتان
لي فيه من زاهرات الروض أجملها ومـن أطايب هـذا الكون أفنـان

★ ★ ★

بوركت يا شام كم قدّمت من زهرٍ ومـن ورود تلقّتهـنّ بلـدان
رجالك الصيـد أعـلام غطارفـة وغيـدك البيـض آرام" وغـزلان
يمضي الزمان وما نابتـك نائبـة الاّ وأنت وأهـل العزم أخـدان
طوى الزمان مزايانا وقد سعدت بالعُرْب من قبلُ أزمان وأزمان
أفٍّ لعصـر تمادى المبطلون بـه سـفاهـة وكبـا بالسبق فرسـان
كيف التصبّر والقدس الشريف لقىً يحتلّـه واغـل بـاغٍ وخـوّان
لا بـد للنـاس مـن يوم يظللهـم عـدل وينفعهـم سـعي واتقـان
الأرض روضتنا والسّلْم ملّتنـا والعـدل رايتنـا والحبُ عنـوان
كأننـا نحـن كـلُ الناس يحفزنا الى العـلا وطـن سـامٍ وايمـان

بعض المصادر والمراجع :

ـ ألف ليلة وليلة		المطبعة العثمانية المصرية
ـ تاج العروس	محمد مرتضى الحسيني الزبيدي	
ـ تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار (أو رحلة ابن جبير)	أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير	مطبعة السعادة ـ مصر ١٩٠٨ مطبعة بريل ليدن ١٩٠٧
ـ تطور الري في العراق	د. أحمد سوسة	مطبعة المعارف ـ بغداد ١٩٤٦
ـ تنسيق الحدائق	د. لـؤي اهـدلي	المطبعة التعاونية ـ دمشق
ـ دراسات فنية في الأدب العربي	د. عبد الكريم اليافي	طبعة ثانية ١٩٧٢
ـ الديـارات	أبو الحسن علي بن محمـد المعـروف بالشابشتي	تحقيق كوركيس عواد طبعة ثانية ـ بغداد ١٩٦٦
ـ ديوان البحتري	تحقيق حسن كامل الصيرفي	دار المعـارف
ـ ري سامراء في عهد الخلافة العباسية	د. أحمد سوسة	مطبعة المعارف ـ ١٩٤٨
ـ غوطـة دمشـق	محمد كردعلي	طبعة ثانية ـ دار الفكر ـ دمشق١٩٨٤
ـ مـروج الذهب	أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي	
ـ معجـم البلدان	ياقـوت الحمـوي	دار صادر بيروت
ـ المعجم الطبي النباتي	د. العماد مصطفى طلاس	دمشق ـ ١٩٨٩
ـ مفتاح السعادة ومصباح السيادة	أحمد بن مصطفى المعـروف بطـاش كبري زاده	حيـدر آبـاد
ـ نزهة الأنام في محاسن الشام	أبو البقاء عبدالله بن محمد البدري المصري الدمشقي	المطبعة السلفية ـ ١٣٤١ هـ
ـ نهاية الأرب في فنون الأدب	شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري	
ـ ورد الشـام	د. العماد مصطفى طلاس	اصدار المشاريع الانتاجية ـ ١٩٨٣

— L'Art des Jardins, Pierre Grimal Que Sais-je, P.U.F. 1964.

— L'Esthétique de Shopenhauer, André Fauconnet Felix Alcan, 1913.

— Encyclopedia Universalis.